آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان السابع والعشرون والثامن والعشرون - رمضان ١٤٢٠ هـ - كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠ م

■ مصحف شريف كتب في القرن التاسع

A COPY OF THE HOLY QURAN

written in the 9th century A. H.

(٢)
قـراءة نقديــة في الاستشــراق

الدكتور/ كمال لاشين
جامعة الإمارات العربية المتحدة

إنّ الاختلاف حول فكرة الاستشراق قديم ، والمناقشات الدائرة بين مهوِّل ومهوِّن حادّة: مهوِّل مادح يكاد يردّ إلى الاستشراق الفضلَ كلّه في نشر التراث العربي وإذاعته وتحقيقه وضبطه ، ووضع المناهج العلميّة لدراسته ونقده. كأنّ العرب لم يكن لهم تاريخٌ في العلم طويل.. كانت لهم فيه وسائلهم هم في نشر العلم وإذاعته ، وتحقيقه وضبطه ، ومناهجهم هم في دراسته ونقده ، وجُلُّ هذا الفريق من صنع الاستشراق. وبعض نابتة البعثات العلمية ، حيث بهرهم فجعلهم لا يرون فيه إلاّ الأضواء الزاهية.

ومهوِّنه قادحٌ لا يكاد يقرّ للاستشراق بأيّ أثر، ولا يعترف له بأيّ فضل، وهو عنده متَّهم في كلّ ما فعله، خبيث الطويّة في كلّ ما قام به. وهذا مذهب بعض حرّاس التراث، الحادبين عليه، العاطفين عليه كما تعطف الأم على ولدها، تحرسه من كل خطر، فربما توهّمت خطرًا عليه فيما ليس بخطر في حقيقته. وكان شيخي وأستاذي العلاّمة محمود محمد شاكر – رحمه الله – رأس هذا الفريق، لا يعترف للاستشراق بفضل ألبتّة، ولا يرى في المستشرقين خيرًا أبدًا، وربما انتزع منه انتزاعًا اعتراف لواحدٍ من المستشرقين بشيءٍ من الفضل، ثم يعود إلى قديم رأيه.

ومع ما لهذا الرجل من الأثر القويّ في عقلي ورأيي لم تسكن نفسي أبدًا إلى جملة رأيه في الاستشراق، فيما سمعت منه، وقرأت له، فكنت أتوقّف، وإن كان لا يخفى عليَّ وجه السبب الذي من أجله قال في الاستشراق ما قال.

وبين المادح المهوِّل، والقادح المهوِّن فريقٌ ثالث يشقّ الطريق منذ مدة إلى رؤيةٍ عادلة لفكرة الاستشراق؛ ما لها وما عليها. يعطي فيها للاستشراق من الفضل ما هو له دون تزيُّد، ويُحَمِّلُ فيها ما لا بد أن يحمِّله من الأوزار والجرائر دون تحيّز. ولكن هذا الفريق الثالث يشقّ طريقه بصعوبة بين صخب المهوِّلين والمهوِّنين.

واختلافنا حول فكرة الاستشراق مثالٌ حيٌّ لكثيرٍ من الأمور التي نختلف فيها؛ فنحن لا نعرف كثيراً

كيف نختلف، وفيمَ نختلف، فيطول اختلافنا، ولا نعرف كيف نتفق. والاختلاف المفضي إلى الاتفاق علم، فمن لا يعرف مداخل الاختلاف، ووجه الخروج منه فيما يفضي فيه الاختلاف إلى اتفاقٍ طال تحيُّره في الاختلاف، ولم يهتدِ.

وهذه فِكرٌ أرجو أن يكون فيها ما يعين على بناءِ رأيٍ نقديّ موضوعيّ لفكرة الاستشراق، أستقيها من دراساتٍ نقديَّة في قضية الاستشراق، ومن أهمها كتاب: (الاستشراق بين دعاته ومعارضيه): مقالات لمحمد أركون، ومكسيم رودنسون، وآلان روسيون، وبيرنارد لويس، وفرانسيسكو غابرييلي، وكلود كاهين(١). وكتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) (مقالات)(٢). وتدور تلك الفِكَر حول عدة محاور:

أ - **فكرة الاستشراق وفكرة الاستعمار.**

ب - **الاستشراق وتسويق الفكر الغربي عن الحضارة والإنسان.**

جـ - **الاستشراق والإسلام.**

أمّا عن الاستشراق والاستعمار: فقد قدما إلى الشرق معًا، وحملتهما سفينة واحدة، وهذا أمرٌ لا يكاد يقع فيه الخلاف إلاّ قليلاً. وقد ذُكر أن لفظ «مستشرق» ظهر في المعجم الإنجليزي سنة ١٧٧٩م، وفي المعجم الفرنسي ١٨٣٨هـ. وهذه المدة التي ظهر فيها اللفظ: أخريات القرن الثامن عشر، وبدايات القرن التاسع عشر بما يدل على ظهور فكرة الاستشراق، هي المدة نفسها التي ظهرت فيها فكرة الاستعمار؛ فقد نشأت الفكرتان معًا في أوربا في وقتٍ واحد، ثم قدمتا إلى الشرق معًا خطوةً بخطوة ويدًا بيد كما قلت.

وفكرة الاستعمار فكرة جائرة مستعلية بغيضة، لا خلاف في ذلك بين العقلاء الذين لم يُفتنوا عن عقولهم. يقول اللواء أركان حرب: عبد الحميد علي شرف في كتابه (الصراع الكبير بين الشرق والغرب، مراحل وتطور الصراع عبر ثلاثة عشر قرنًا)(٣): لقد ساد في القرن التاسع عشر نظريتان استعماريتان: **الأولى:** هي النظرية البيولوجية السياسية، التي تعني حق الدول الكبرى في التهام الدول الصغرى، ومشروعية ذوبان الكيانات الصغيرة في الكيانات الكبيرة. **والثانية:** هي النظرية التي تبيح تملك الأقاليم التي تسكنها شعوبٌ متخلفة غير مستحيية، أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة العصرية الأوربية في ذلك القرن. وهذه النظرية تعدّ أمثال تلك الأقاليم خالية غير مسكونة، ولا عبرة عندها بمن فيها من البشر.

ولا ريب في أن هذا الجور الأرعن والاستعلاء البغيض، الذي انطوت عليهما فكرة الاستعمار، ليسا بالضرورة من لوازم فكرة الاستشراق؛ لأن الاستشراق عملٌ علميّ خالص، يتوخّى الحقّ، ويسعى إلى الخير. وكان يفترض أن يكون الاستشراق - كما قال فرانسيسكو غابرييلي المستشرق الإيطالي المولود سنة ١٩٠٤م - عمليّة علميّة موادعة مسالمة، وأن يكون المستشرق رجلاً اختار بمحض إرادته علمًا بعيدًا عنه زمانًا ومكانًا ولغةً؛ ليدرسه طلبًا للحقيقة وحدها(٤).

ولكن الاستشراق لم يكن كذلك في واقع الأمر، ومرد ذلك نشأة فكرتي الاستشراق والاستعمار معًا، ومجيئهما إلى بلاد الشرق معًا. فألقى الاستعمار بظلاله على الاستشراق، وطبعه بطوابعه، واستغله لأغراضه ومقاصده بوعي من الاستشراق أو بغير وعي منه، فصرفه عن غايته العلميّة الخالصة، وأثار حوله الشكوك والريب.

وهذا الأثر الذي تركه الاستعمار في الاستشراق لا ينكره بعض المستشرقين أنفسهم. يقول غابرييلي: «إنّ الاتهام الأقدم والأكثر انتشارًا ضد الاستشراق هو ذلك الذي يقول: «إنّ الاستشراق كان أداة (أو المساعد والحليف على الأقل) للتغلغل الاستعماري

الأوربي في أرض الإسلام... والمستشرق وفقًا لهذا الرأي مستكشف طليعي للاستعمار، أو حليف ومستشار للتاجر الأوربي، والسياسي الأوربي، والمستغل الأوربي»(٥).

ويرى غابرييلي أنّ هذا الاتهام عارٍ عن الصحة، أو مبالغٌ فيه، ثم يعود فيقول: «صحيحٌ أنه وجد بعض المستشرقين كعملاء - كذا - لهذا الاستعمار وكأدواتٍ له، من هؤلاء القناصلة والسفراء والتجار والمبشرون والعسكريون...»(٦). فإذا كان هؤلاء العملاء قد وجدوا كما قال، فكيف يكون ذلك الاتهام عاريًا عن الصحة؟

ومما يدل على تلك الصلة القوية بين الاستشراق والاستعمار ذلك الاستعلاء الذي اتسم به بعض الاستشراق الكلاسيكي - والاستعلاء جوهر فكرة الاستعمار كما علمت - يقول غابرييلي: «يحق للغرب أن يطبق على الشرق مفاهيمه ومنهجياته وأدواته الخاصة، التي كان قد بلورها في تاريخه الحديث، كما يحق له أن يطبّق معاييره الخاصة على ما ندعوه بالتاريخ والحضارة والثقافة والفلسفة والشعر». ويرى أن الغرب ليس بوسعه أن ينظر إلى الشرق إلاّ بهذه النظرة، وأنه لا يستطيع أن ينظر إليه بعيونٍ شرقيّة وعقليّة شرقيّة إلاّ إذا أنكر الغرب ذاته ووعيه ومسوّغ وجوده(٧).

ويقول كلود كاهين في الردّ على أنور عبد الملك في مقالته: «الاستشراق في أزمة»: «إنّنا، يعني الغرب، نمتلك تلك الميزة المتفوقة وهي أننا قادرون على الاهتمام بكل تاريخ العالم، وليس بتاريخنا الخاص فقط»(٨). ويقول أيضًا: «إن الاستشراق هو الذي أخذ بزمام المبادرة في دراسة الشرق، ولولا ذلك لكان الشرقيّون عاجزين عن أن يقولوا عن ماضيهم نصف ما يقولونه الآن»(٩).

والذي قاله غابرييلي وكاهين هنا يقع في لبّ الخلاف حول فكرة الاستشراق، والأصل الفلسفي الذي قامت عليه، أيحق للغرب فعلاً أن يطبّق على الشرق معاييره ومفاهيمه؟ وبأيّ حقٍّ حقّ له ذلك؟ وهل يقبل الغرب من الشرق أن يصنع بفكره وحضارته وعلمه ما صنعه هو بفكر الشرق وحضارته وعلمه؟ وهل لكل ذلك الاستعلاء من أصل فلسفيّ علميّ عقليّ يصحّحه؟ وهل يملك الغرب حقًّا - كما يقول كاهين - تلك الميزة المتفوقة التي تخوّله الحكم على تاريخ العالم؛ لأنه يملك القدرة على الاهتمام بتاريخ العالم؟

وإذا أنت تأملت مليًّا في الأصل الذي قام عليه هذا الفكر الاستشراقيّ عند هذين الرجلين، والأصل الذي قامت عليه فكرة الاستعمار وجدته واحدًا: يحق لنا استعمار أرض غيرنا؛ لأننا الأقوى، ويحقّ لنا الحكم على حضارة غيرنا وثقافته، وإخضاعهما لمعاييرنا؛ لأننا الأقوى.

ومما قاله غابرييلي: أن الغرب لا يستطيع أن ينظر إلى الشرق بمعايير الشرق، وإن أراد هو الأصل الذي قامت عليه فكرة معارضة الاستشراق والتهوين ممّا قدّمته الدراسات الاستشراقيّة للتراث العربي والإسلامي.

الاستشراق ومفاهيم الغرب:

لعلّ أخطر ما في فكرة الاستشراق أنها جاءت بأحكامٍ وفكرٍ استحوذت عليها ووضعت تحقيقها هدفًا أساسيًّا، جاءت محمّلة بفكر الغرب ورؤيته، هدفها أن تقهر الفكر العربي الإسلامي؛ لينزل على مقتضى ذلك الفكر وتلك الرؤية.

يرى غابرييلي: أن الاستشراق أحد الجوانب المتفرعة عن عصر التنوير والرومانتيكية في أوربا، ثم عن عصر الوضعيّة والماديّة التاريخيّة، وأن الاستشراق حين خرج من أرضه ونزل الأرض الأجنبية - يعني الشرق - حمل معه رؤيته الخاصّة للحضارة والتاريخ والسياسة والدين والمجتمع والشعر وما إلى ذلك(١٠).

جاءت فكرة الاستشراق – عند بعض دعاته – وهي تحمل مفاهيم الغرب، وأهمها المفاهيم الأربعة الآتية: التاريخ والتجريب والتنمية والتقدم. وكان العقل الغربيّ قد رأى نجاته، وتخلّصه من سطوة الكنيسة في الإيمان بهذه المفاهيم والاحتكام إليها، وهذا شأنه، ولكنّ الذي ليس من شأنه يقيناً أن يقهر حضارة الشرق، وعلومه وعقيدته ليخضعها لهذه المفاهيم.

وأخطر ما في تلك المفاهيم مفهوم التجريب، وأخطر ما فيه أن يطبق على ما يستحيل التجريب فيه، وبه تمّ الشك في ثوابت من العلم، والعقيدة ليست بطبيعتها موضع شكّ، وأخذ بالتجريب في مسائل ليست بطبيعتها مجالاً للتجريب. ولهذا كان للاستشراق أمنيات في أن يغيّر الشرق جلده، ويفارقه عقله وعقيدته، ويكون غرباً. يقول غابرييلي: «وليست لي إلاّ أمنية وحيدة: أن يخترع الشرق قيماً جديدة ومبتكرة قادرة على إغناء ميراث البشرية على هذه الأرض»(١١).

وهذا الكلام بيِّن. فالشرق، وهو مهد الأديان، ليست قيمه القديمة بصالحة لإغناء ميراث البشرية على هذه الأرض، فليدع الشرق قيمه، وليأخذ قيماً جديدة صالحة لإغناء ميراث البشرية على هذه الأرض، ولن تكون هذه القيم الجديدة سوى قيم الحضارة الغربية الحديثة التي حملتها فكرتي الاستعمار والاستشراق.

ومن الإنصاف أن نقول: إن بعض المستشرقين قد تنبه إلى أنّ التباين بين الحضارات حقيقة واقعة لا محيد عنها. يقول صمويل بي هانتيجتون في كتابه: الإسلام والغرب، آفاق الصدام(١٢): «فالحضارات يختلف بعضها عن بعض بفعل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد. والأكثر أهمية عامل الدين، فأصحاب الحضارات المختلفة يعتنقون معتقداتٍ مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، وبين الفرد والجماعة، وبين المواطنين والدولة، وبين الآباء والأبناء، وبين الزوج والزوجة.. إلخ»(١٣).

ولكن كثيراً من المستشرقين لم يبالوا باختلاف الحضارات، ولم يلتفتوا إلى اختلاف العقائد، ورأوا حمل الشرق وحضارته على أن يكون كالغرب سواء بسواء. يقول مكسيم رودنسون: «لقد انخرط الغرب الحديث كله، وأوساطه العلمية من آمن منها ومن لم يؤمن، في تحييد ما سمّاه تطفل الخارق للطبيعة على التاريخ، وتدخله في مسيرة المجتمعات وآليات مسيرتها»(١٤).

الاستشراق والإسلام:

دخل بعض الاستشراق بمنهجه النقدي إلى مجال الإسلام والقرآن، وقال فيهما بما يرى، من ذلك قول أحد المستشرقين في تفسير قوله تعالى: ﴿**وإلى الله المصير**﴾(١٥) «إله الإسلام جبّارٌ مندفع، بينما إله المسيحيّة عطوف متواضعٌ.. فعقيدة التثليث المسيحيّة قربت الإنسان من الإله، وعقيدة التوحيد الإسلامية باعدت بينهما، وجعلت الإنسان خائفًا متشائمًا».

ويقول آخر عن الحروب الصليبية: وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن، وعلى ما يتضمّنه من قوانين الأخلاق الساذجة.

الاستشراق جاء إلى الشرق والشرق واهنٌ ضعيف

ينقل الدكتور عبد العزيز الشناوي في كتابه (الدولة العثمانية المفترى عليها) صورة عقد اتفاق بين إنجلترا وبعض حكّام الخليج قديماً(١٦)، ونصوصه:

١ – أني لا أدخل أبدًا في قرارٍ ولا محاورة مع أيّ من الدول سوى الدولة البهيّة الإنجليزية.

٢ – بغير رضاء الدولة البهية الإنجليزية لا أقبل أن يسكن في حوزة ملكي (سفير) من دولة غير الدولة البهيّة الإنجليزية.

٣ – أبـدًا لا أسلِّم ولا أبـيـع ولا أرهـن ولا أعـطـي للتصرف شيئًا من ممالكي لأحد إلاّ للدولة البهيّة الإنجليزية(١٧).

الاستشراق لا يعتني بحاضر الشرق ومستقبله بمقدار عنايته بماضيه:

يـقـول مـعـارضـو الاسـتـشـراق: إن كـان تـوجّـه الاستشراق القديم إلى الشرق لغاية علميةٍ خالصة، وطلبًا للحقيقة، فماذا قدّم الاستشراق لحاضر الشرق. ويعترف غابرييلي: أنّ هذا " سؤال وجيهٌ، وأنّ الاستشراق لم يفعل شيئًا ذا بالٍ لحاضر الشرق ومستقبله، ولم يُعن بعلم الشرق الحاضر كما عني بعلمه القديم، وأقرَّ بأن التصوّر الكلاسيكي للاستشراق كان يصدر كثيرًا عن احتقارٍ للشرق وازدراءٍ له. ●

●●●

الحواشي

١ – صدر الكتاب بترجمة هاشم صالح في طبعته الأولى عن دار الساقي سنة ١٩٩٤م.

٢ – صدر الكتاب عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – مكتب التربية العربي لدول الخليج، في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري.

٣ – صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م.

٤ – الاستشراق بين دعاته ومعارضيه: ٢١.

٥ – المصدر نفسه: ٢٣.

٦ – المصدر نفسه: ٢٤.

٧ – المصدر نفسه: ٢٤.

٨ – المصدر نفسه: ٣٦.

٩ – المصدر نفسه: ٣٦.

١٠ – المصدر نفسه: ٢١.

١١ – المصدر نفسه: ٢٩.

١٢ – ترجمه الأستاذ مجدي شرشر وصدر في مصر عن مكتبة مدبولي سنة ١٩٩٥م.

١٣ – الإسلام والغرب، آفاق الصدام: ١١.

١٤ – الاستشراق بين دعاته ومعارضيه: ٥٣.

١٥ – النور : ٤٢.

١٦ – الدولة العثمانية المفترى عليها: ١٠٥٢.

١٧ – الصراع بين الشرق والغرب، ١١٥.

المصادر والمراجع

شرف : عبد الحميد علي.

– الصراع الكبير بين الشرق والغرب، ط١، ١٩٩٢م.

صالح : هاشم.

– الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، مقالات مترجمة، ط١، دار الساقي، ١٩٩٤م.

المنظمة العربية للتربية والثقافة.

– مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مقالات، مكتب التربية العربي لدول الخليج.

هانتيجون : صمويل بي.

– الإسلام والغرب، ترجمة مجدي شرشر، ط١، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م.